٢ — على ضفاف القناة :

معمل تكرير البترول

للأستاذ عبد الحفيظ أبو السعود

وأعنى به المعمل الحكومى الذى يقع فى الزيتية قرب مدينة السويس ، بجوار المعمل العظيم الضخم الذى (تمتلكه) الشركة الإنجليزية لحما ودما ، والمعروفة بشركة (شل) . !

زرت هذا المعمل الحكومى مع تلميذاتى ، طالبات القسم الثانوى بمدرسة الإسماعيلية الثانوية الأميرية للبنات ، وفى ذهنى صورة مشرقة عنه ، تعتز بها نفسى كوطنى غيور ، وأستاذ يحاول أن يشرب نفوس تلاميذه وتلميذاته حب الوطن ، والاعتزاز بعرافته الحيوية ، ومقومات وجوده . .

أقول فى ذهنى صورة كونتها من المعلومات الكثيرة المتنوعة — فى الواقع — التى تنشر فى الصحف والمجلات والكتب المدرسية ، التى فى أيدى الطلاب والطالبات ، والتى تصور هذا المعمل فى إطار من الجلالة والكمال ، والروعة والعظمة ، ما تمتلئ له نفس المصرى بالفخار والإجلال

ومن العجيب المؤلم أننى خبت فى هذا الأمل . فى هذه الصورة الجليلة العظيمة التى كونتها من الصحف والمجلات ، والكتب المدرسية ، لا من البحث والدرس والتنقيب . . ووقفت ذاهلا حيران ، حينما علمت الحقيقة المرة ، التى تسئ إلى مصر والمصريين أجمعين ، وتدل دلالة واضحة على غفلتنا وبلهنا ، وتمكن العنصر الإنجليزى اللعين فى البلاد ، أو بعبارة أدق السلطان الإنجليزى ، وتمكنه فى مرافقنا الحيوية إلى حد كبير ، حتى ليخيل إلى الآن ، أن صراخنا وهتافنا بين الحين والحين ، ومطالبتنا بالجلاء الناجز ، ما هو إلا عبث أطفال عاجز ، والطريق الوحيد إلى الحرية والاستقلال هو غير ما نفعل بلا مراء . . إنه أشبه بهتاف الأطفال والصغار كلما رأوا طائرة فى الجواء ، محلقة فى الفضاء ، ارتفعت أصواتهم مدوية مجلجلة : (يا عزيز يا عزيز . . كبة تاخد الانجليز . .) . !

والعزيز القهار ، الذى لا يغلبه شئ فى الأرض ولا فى السماء قادر على أن يأخذ الإنجليز ، ولكنه لا يأخذهم إلا إذا حاولنا نحن أخذهم والقضاء عليهم ، واتخذنا طريق الجد والسعى والعمل ، لا طريق الهزل والنقاش والفرقة والجدل ، ومهما كانت جهودنا ضعيفة ضئيلة ، فإن العزيز القاهر سينصرنا حينئذ عليهم نصرا مبينا ، ويتولى هو أخذهم ما دمنا نتذرع بالإخلاص ، ونتذرع بالإيمان والعزم . .

إن الزائر العابر لهذا المعمل الحكومى يعجب بما فيه من عدد وآلات ، ومساحة واسعة ، وبناء فخم ضخم ، فيه بذخ وسخاء . كما جرت بذلك عادة حكومتنا السنية الرشيدة فى عنايتها الكبيرة بالبناء والعمارة ، ومبالغتها فى تشييدها وتنسيقها . وتنظيمها إلى حد يخرج بها عن الغرض الذى بنيت من أجله ، ويدل دلالة واضحة على المبالغ الكبيرة التى أنفقت عليه ، والتى يذهب أكثرها إلى جيوب المرتشين من القائمين بكل عمل حكومى نظير تغاضيهم عن الأصول المرعية ، والقواعد المرسومة ، والاشتراطات الموضوعة ، والمتفق عليها ، والقوانين التى يجب أن تسود . .

وإن الزائر العابر يؤخذ بما يقال له من معلومات ممسولة جذابة ، وعبارات منمقة حماسية ، كما طاف بأنحاء المعمل ، وتجول فى أرجائه ونواحيه . . معلومات تسيطر على حواسه ، وتعلك عليه جوانب نفسه ، ويعتقد أن مصر سعيدة به إلى حد ليس بعده سعادة ، ويخيل إليه أن إنتاجه يضمر البلاد بأسرها ، ويسد حاجة مصر من هذه المواد الضرورية فى مختلف نواحى الحياة من بنزين وكيروسين وديزل ومازوت وفازلين إلى غير ذلك من منتجات البترول ، أو الذهب الأسود بعبارة أدق . ! ولكن الواقع غير ذلك ، إذ أن هذا المعمل بجلالة قدره لا يمول السوق . . هذا المعمل الذى تشرف عليه وزارة التجارة والصناعة لا ينتج للاستهلاك الشعبى ، وإنما يعمل وينتج للمصالح الحكومية فحسب . ينتج البنزين والكيروسين والسولار والمازوت ، ولا شئ غير ذلك ، ومع هذا فإن جماع إنتاجه لا يكفى هذه المصالح ، ولا يسد غير جزء يسير مما تحتاج إليه ، والذى تمد يدها داعما

مستجدية معمل شل ، وغيره من بقية معامل العالم ، فتستورد مقادير كبيرة تسد بها حاجياتها ، وبخاصة مصلحة الميكانيكا والكهرباء التابعة لوزارة الأشغال . !

إن هذا المعمل الحكومي العظيم يعيش على فتات موائد معمل شل ، أي أنه يكرر نصيب الحكومة في استغلال آبار البترول ، ويقدر بحوالي خمسة عشر في المائة مما تخرجه هذه الآبار ، وهي كمية أقل ما يقال فيها : إنها نصيب الخائب ، المغلوب على أمره ، والذي ليس له من الأمر شيء ، إلا أن يسمع فيطيع ..!!

هذه الحقيقة المرة التي خجلت آمالي ، وخيبت ظني في هذا المعمل الوطني ، لأنه في الواقع يستمد حياته من معمل شل ، ولا يكاد يستقل بأمره ، أو ينهض فريدا بأعباء العمل الذي من أجله قد بني ، إلا إذا أردنا نحن المصريين له مخلصين . .

أما معمل تكرير البترول الإنجليزي ، وأعني به معمل شل فإنه يفوق معمل تكرير البترول المصري بمئات المرات لا أقول مساحة وإنما أقول إنتاجا وكفاية ، واستعدادا للطوارئ ، ومواجهة للظروف كائنة ما كانت . . إنها كالمعلاق الجبار الذي يزهو بقوته وجبروته ، والقزم الذليل الهزيل الضعيف ، الذي يتضاءل ويتصاغر خجلا واستحياء لئلا تقع عليه العيون ، لشعوره بضعفه وحقارته ، وضآلة شأنه ، وهوانه على الناظرين ..!!

وينتج هذا المعمل بجانب الأنواع التي ينتجها المعمل الحكومي — الديزل والفازين والأسفلت وغير ذلك مما يحتاج إليه الاستهلاك الفعلي ، والسوق في مختلف نواحي العالم . ولا يخفى ما في ذلك من ربح وفير . . وإن زيارة واحدة لمدينة السويس حيث يقوم هذا المعمل الكبير المترامي الأطراف ، وجولة خاطفة بالزرقة ورأس غارب وسناجة . تجعلنا ندرك إلى أي حد تتدفق الأموال باستمرار في جيوب هذه الشركة العاتية ، أو بعبارة أدق كيف يسيل الذهب من مصر إلى خزائن الإنجليز براقا يخطف بالأبصار . . ثم لا يعجب بعد ذلك لما يراه من مظاهر الغنى والثراء التي تكتنف هذه الشركة ، وتحيط بموظفيها من الإنجليز بخاصة لأنهم الذين يستأثرون مع قلتهم بالمناصب الكبيرة ذات المرتبات الضخمة جدا ، ولا يضير الشركة ذلك ما دام سيتمتع بمرتباتها الكبيرة أبناؤها من الإنجليز ، لأن الإنجليزي يعرف كيف لا ينفق قرشا واحدا خارج بلاده ، ويدفع بجميع ما يمتلكه داخل بلاده ، ولعلنا ندرك بعد هذا السر في تقشف هؤلاء الإنجليز المصطنع وبخاصة كبار الإنجليز في وزارة المعارف وغيرها من الوزارات ، يرتدون أقل الملابس قيمة ، وأحقرها شأنا ، إلى حد أن يوقع الناظر إليهم في الضحك الساخر ، والهزء اللاذع ، وإن كانوا لا يقيمون وزنا لكل ما يسمعون ، فلقد ضرب بهم المثل في الصفاقة والبرود ، ولهم دائما أذن من طين ، وأخرى من عجين كما يقولون . .

وتحتل إدارة هذه الشركة في القاهرة أكبر عمارة في ميدان توفيق ، مكونة من ستمائة حجرة ، ومجهزة بآلات تكييف الهواء صيفا ، وأنابيب التدفئة شتاء . ويمتلك هذه العمارة شركة مصر للتأمين ، وتدفع شركة شل إيجارا لها قدره خمسة وثلاثون ألفا من الجنيهات سنويا . ويقال إن القيادة البريطانية هي التي تدفع إيجار هذه العمارة مستترة وراء شركة شل ، وذلك لاستعمالها في أغراض حربية عند اللزوم ، ويدلل أصحاب الرأي على صحة ما يقولون بأن شركة شل كانت تسكن في عمارة بها ستون حجرة فقط ، فكيف يقفز عدد الحجرات من ستين إلى ستمائة دفعة واحدة ، وبلا سابق إنذار ! !

ومما هو جدير بالذكر أن المركز الرئيسي لهذه الشركة في لندن ، وله مجلس إدارة يدير شركة شل يرأسه سير (فردريك جوبر) وجميع أعضاء هذا المجلس من الإنجليز ، ما خلا عضوا واحدا مصريا ، هو مندوب الحكومة المصرية . . وأننا نحن المصريين قد جددنا امتياز احتكار هذه الشركة للبترول المصري ثلاثين عاما ابتداء من سنة ثمان وأربعين وتسعمائة وألف ميلادية ! !

وبعد : فإن مجرد زيارتي لمعمل التكرير الحكومي بالسويس ووقوفي على هذه الحقائق المرة ، أضعفت ثقتي إلى حد كبير بما يكتب وينشر من أناس تضعهم في مقدمة المؤلفين والباحثين والمنتجين ، وبما يذاع في أنحاء البلاد ممن لا يتوخون الحقائق حين يكتبون ، وبخاصة في هذه الموضوعات الاقتصادية الوطنية ، وكان الأولى بهم أن يتحروا الحقائق خدمة لهذا الوطن المرزوء . !

عهد ختام

للأستاذ محمد محمود جلال بك

وثمة صلة تخفى على النظرة العابرة . تلك صلة القرية وقرباها . (برطباط) بلد الشاعر التى هام بها وكانت فى مجموعها مصدر أنسه ، فصديقاه منها ، ومعالمها أحب المعالم إليه ، وعشراؤه الذين يعمرون ندوته من أهلها . إذا غاب عنها ونزل القاهرة دعاها هاتفا :

يا (برطباط) سلام الله أهديك ... أنت الحبيبة قلبى ليس يسلوك
يا قرة العين يا دار الخليل ويا ... مهد الأحبة ما حب كحبيك

وإذا طال مقامه عما قدر ، وقد لاينزل القاهرة إلا لعلاج أو لضرورة عمل ، عزفت عينه عن مباهجها ، ورأى فى (برطباط) شخص حبيب يرفع إليه اعتذاره :

حالت صروف الليالى دون مجتمعى ... ياليتها ما مضت عنا لياليك
مرت سراعا وصارت إذ مضت وقضت ... على حشاشة أنسى بعد أهليك

ولم أظفر بنظير — فيما عرفت وقرأت — لهذا العمق فى حب المكان — ولعل ما أشرت إليه من إرهاف حسه ، وحب الخلوة أثر فى ذلك :

مامصر يوما وإن جلت محاسنها ... أبهى وأحسن عندى من مرائيك

وشاعرنا فى هذا الوضع يشارك المرحوم رفاعة بك الطهطاوى إذ يقول فى مقدمته « الوطنية المصرية » يشير إلى طهطا « ولأرضك حرمة وطنها ، كما لأمك حق لبنها ، ومن طبع الأحرار الحنين إلى الأوطان ، وإن ألبستنى المحروسة (القاهرة) نعما »

ولا شك أن الوفاء أظهر وأوضح حين يتصل بالقديم من المنازل والأول من الذكريات ، فلكل واحدة من أولئك فضل الانبثاق الماطق ، وأول الإشراق للتقدير الشخصى

يقولون إن الرسول الكريم — وهو مثل الكمال الإنسانى عليه صلاة الله وسلامه — نظر إلى معالم البلد الحرام أول هجرته وقبل أن يستدبر ثم قال « اللهم إنك أحب بلد إلى الله إلى ، ولولا أن أهلك أخرجونى ما هاجرت » . وهذا أرق تعبير وأدق ، وهو لم ير إلى ذلك التاريخ إلا جفوة منكرة من أهلها . ومعالم احتفظت بهول المذاب للنفر الفر من صحبه الكرام لا لشئ إلا أن يقولوا ربنا الله . ولكنه يعرف للبلد الذى نشأ فيه حرمته وحقه ، ولاينساه حتى وهو مقبل على يثرب حين ينتظره الأنصار الفادون وحيث الظل والماء

وقد يبلغ القلق من شاعرنا — وهو فى عصر المواصلات السريعة — حدا تتراكم به هواجسه فتظهر على فمه شعرا يخاطب بلده :

عبد الحفيظ أبو السعود